سابق البربري شاعر خليفة الراشد عمر بن عبد العزيز

عبد الحميد نميل

قسم اللغة العربية جامعة كراتشي.

Abstract:

Sabiq Ibn Abdullah: in the history three prominent personalities share this name in the era from the second half of the first century to the first half of the second century A.H and two of them even share the same discipline Hadith as well.

Beginning with the first, Sabiq Ibn Abdullah, known as a very trustworthy and reliable Muhaddith, was the disciple of Imam Abu Hanifa. The following, Sabiq Ibn Abdullah Muhaddith, had the identical name and was famous with title of Al Hajjam, however, does not enjoy the same status among Muhaddiseen as of the first and usually referred to as the less authentic and reliable Muhaddith. The third and the most important for our research article is the personality who has similar name Sabiq Ibn Abdullah but famed in the history as Sabiq Al Barbari. He was a very well-versed poet and even the fifth Caliph of Islam Umer Ibn Abdul Aziz appreciated him due to his inspirational poetry.

Sabiq Al Barbari was a very pious poet of his time. The leading theme he addressed mostly in his poetry is asceticism. Legendary author and scholar Jahiz had referred to him along with the other poet, Saleh Abdul Quddoos, who had also written on the same theme of asceticism, as a very inspiring and striking poet. Likewise, the prominent poet of Umayyat age and the writer Ibn Al Mutaz also mentioned him in his works as a poet of asceticism.

This study aims at the introduction of this great poet along with his works and described the distinctive features of his remarkable poems. We also critically analyzed and compared him with other poets like Abul Atahiyah, Saleh Abdul Quddoos and Abdullah Ibn Mubarak who are known even today and the devout and revolutionary poets of their time.

هناك وضع معقد ومشكلة عويصة تحتاج إلى الحل، وهو إختلاط ترجمة ثلاث شخصيات بارزة في الأدب العربي وفي الحديث النبوي يسبب الإشتراك في الاسم وأصبح لدى المؤرخين وأصحاب التراجم تميزهم فيما بينهم أمرا صعبا فكل واحد منهم يدعى "بسابق" واسماء آبائهم أيضا واحد وهو عبد الله فيذكرهم المؤرخون "بسابق بن عبد الله" فأصحاب التراجم عامة يذكرون الثلاثة في موضع واحد.

فالأول منهم محدث بارع وحافظ ثقة ويقول عنه "ابن عساكر"[1] و"ابن حجر"[2] و"ابن عدي"[3] "أحاديثه مستقيمة عن مطرف وأبي حنيفة والذي يذكره ابن حبان في الثقات[4]، ويقول عنه ابن عساكر في تاريخه:" حدث عنه محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي نسخة عن أبي حنيفة."[5]

والثاني:"سابق بن عبد الله" صاحب حديث "إذا مدح الفاسق إهتز العرش وغضب عنه الرب"يروي عن أبي خلف، خادم أنس، عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم "الحديث"[1] يقول: عنه ابن حجر والراوي عن أبي خلف واه.[6]

والثالث: سابق بن عبد الله الشاعر الزاهد قدم على عمر بن عبد العزيز وأنشده أشعارا في الزهد.

والإرتكاز في هذه المقالة على "سابق بن عبد الله الشاعر" فنلقى التركيز عليه ويتيح الفرصة للكلام على باقي الإثنين للبارعين في مجال تراجم الحديث والرجال.

وحاولنا بأن نذكر عن هذه الشخصية بمصادر يتأكد فيها مكانته كشاعر مع أن المصادرلم تحتفظ بمقدار وافر عن حياة هذا الشاعر، فلا نعرف عن أسرته ولا عن نسبه ولا عن نسبته ولا عن نشأته مفصلا ولا عن بيئته التي تربى فيها ولاعن رحلته العلمية إلا ماكان للمشاركة في الغزوات مع الخلفاء ولا عن آثاره العلمية إلا ماظهر في مجموعة من الشعر.

عصره:

لم يذكر أصحاب التراجم عن تاريخ ولادة"سابق بن عبد الله الشاعر" ولا عن تاريخ وفاته، ولقد بذلت جهدا كبيرا في البحث عن ولادته ووفاته فلم أعثر شيئا عنه- وأظن أن عهده يتراوح بين النصف الأخير من القرن الأول إلى النصف الأول من القرن الثاني أو بعدها بقليل.ويؤيد ماقلناه بأن شهرته كشاعر وصلت إلى حد، بأن خامسا من الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز يطلبه لينشد الشعر أمامه. ومن الواضح أن لهذه الخليفة العادل بويع بالخلافة في شهر صفر سنة تسع وتسعين ومكث فيها سنتين وخمسة أشهر وتوفي بخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة، وله حينئذ تسع وثلاثون سنة وستة أشهر وكانت وفاته بالسم.[7]

كنيته:

وإختلف كذلك في كنيته يقول ابن عساكر: "أبو سعيد، ويقال: أبوأمية ويقال: أبو المهاجر."[8]

ونظن أن أبا سعيد هي كنية المحدث الثقة "سابق بن عبد الله".

ويقول المرزباني كما نقله ابن عساكر: "يكنى أبا عبد الله ويقال أبو أمية أحد الزهاد المشهورين."[9]

ولم يذكر ابن عدي كنيته وقال: "سابق البربري إنما له كلام في الحكمة وفي الزهد."[10]

نسبته:

ونسبته فيه قولان: ذكر ابن عساكر نسبة "الرقي" وقال المعروف بالبربري الشاعر. ويذكر المرزباني وابن عدي بالبربري ولم يذكر نسبة أخرى، ومن ينقل أبياته فمنهم: "عبد ربه بن حماد، وعثمان بن عبد الحميد والعباس الخلال وميمون بن مهران، وأحمد بن محمد الأسدي، والحسن بن سهل و، ابو الفضل الرياشي و، أحمد بن جعفر وأبو العباس الخلال كلهم ذكروه"بسابق البربري" بدون ذكر أية نسبة أخرى له.[11]

أصله:

إختلف الدارسون في أصله وفي وطنه أيضا فمنهم بالنسبة للبربري ينسبونه إلى المغرب ويعدونه من الشعراء المغاربة.

يقول عبد الله كنون في مقالته التي طبعت في مجلة اللغة العربية بدمشق:" إنه مغربي وإنه هو السابق المطماطي الذي قال حين قتال البربر والروم بإفريقيا بأيام سليمان بن عبد الملك أبياتا."[12]

وفي رأي الدكتور سعيد أعراب: لعله أقدم شاعر مغربي برز في هذا الميدان ويقول وتنسبه بعض الروايات إلى "مطماطة" إحدى قبائل زناته.[13] ولم نتفق برأي الدكتور عبد الله كنون ولابرأي الدكتور سعيد أعراب لأن الشاعر الذي كان من مطماطة اسم ابيه سليمان وليس عبد الله. ولكن نسبة البربري تشير إلى أنه من بربر فبهذه النسبة يمكن انتسابه إلى المغرب.

ولم يتفق صاحب الأعلام الأستاذ الزركلي بهذا الرأي.

فيقول: " سابق بن عبد الله البربري "أبو سعيد" شاعر من الزهد له كلام في الحكمة والرقائق وهو من موالى بني أمية، والبربري لقب له ولم يكن من البربر، سكن الرقة وكان يفيد على عمر بن عبد العزيز فيستنشده عمر فينشده من مواعظه."[14]

و ورد في كتب التاريخ روايات عديدة في ولائه فيشير بعض الروايات من انه كان مولى لبني أمية أو كان مولى لوليد بن عبد الملك أوكان مولى لسليمان بن عبد الملك ونقل ابن العديم، بأنه كان غزا في أيام سليمان بن عبد الملك.

وشارك في غزوة الصائفة مع الهشام بن عبد الملك المتوفى سنة 125هـ

وعده ابن عساكر نقلا عن رواته عن "محمد بن اسماعيل البخاري" أنه يعد في الشاميين.[15]

ويعقب ابن العديم رأي البخاري بقوله:"وقال: هكذا قال يعد في الشاميين وتابع هذا القول أبا عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، وإنما قال لأنه أقام بالشام كثيرا وكان إنقطع إلى عمر بن عبد العزيز وله معه اخبار، وغزى في أيام سليمان بن عبد الملك وكان يكون بدابق.[16]

منزلته في الشعر:

لم يكن سابق بن عبد الله من أعلام الشعراء الذين لهم دور بارز ومكانة سامية رفيعة وشهرة واسعة في الشعر في العهد الأموي ومع ذلك كان معروفا بشعره لدى الناقدين وأصحاب الأذواق حتى ذكره أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين مع شاعر مشهور ممتاز من شعراء البصرة، صالح بن عبد القدوس وكان فارسي الأصل مجوسية الديانة ينشد الشعر في الزهد وينشر به عقيدته المانويةسرا وجهرا وهوصالح بن عبد القدوس.

فيقول: "وقالوا لوكان شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري كان مفرقا في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما عليه بطبقات ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق، ولكن القصيدة إذاكانت كلها أمثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر. ومتى لم يخرج السامع من شيئ م يكن لذلك النظام عنده موقع."[17]

وذكره ابن العديم من الشعراء البارزين.

فقيول: "شاعر مجيد له أشعار حسنة في الزهد والمواعظ وله كلام في الحكم." ويعترف امير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن الخليفة المعتز صاحب " طبقات الشعراء" بولوعه بالأدب والشعر وكمال فنه في الزهد والرقاق.فيقول:

" شعر محمود الوراق كثير واكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب وليس يقصر بهذا الفن عن صالح بن عبد القدوس وسابق البربري".

ومع هذا لم يذكره أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني في كتابه"معجم الشعراء المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم" وكذلك أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري في كتابه "الشعر والشعراء أوطبقات الشعراء.

وفي أخباره مايدل على أنه كان مؤمنا صادقا وزاهدا مخلصا ولم يكن يحسن اللهو والمجون والخلاعة وأشياء ضد المروئة في مطالع حياته ويلتزم جانب الوقار ولذلك اشعاره مليئة بموضوع الزهد والرقاق والمواعظ والأمثال والحكم، وكان حاذقا وماهرا في هذا الميدان وبارعا فيه وهوبارع في فن الزهديات ويستعين بملكته الفطرية الموجودة في طبيعته يحرضه على إنشاد الشعر فيتدفق على لسانه شعر الزهد وينشد شعرمستمدا بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ووعظ الوعاظ من عصره ويلفت انظار الناس إلى العبرة من الأمم الدائرة والقرون الماضية وهدفه إذاعة الدعوة إلى محاسن الأخلاق والتفكير في الحياة وعواقبها وفي البعث والنشور والموت والقضاء عن الشهوات ومتاع الحياة الدنيا والإعدادا للآخرة.

وأسلوبه يطبع بطوابع الأسلوب الوعظي وفيه تكرار ونداء وإستفهام وأمر وزجر وتوبيخ وتنبيه.

وكان زاهدا حقيقيا ولا يجرى وراء المال ولايقف على أبواب الأمراء والوزراء وأصحاب الثروة لجلب المال ولذلك نراه واقفا على باب ازهد الزهاد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وليس غرضه طلب

المال أوالجاه وكان لأشعاره من صدى عميق في نفس الخليفة يستمع إلى قريضه ويرتاح له ويكرمه بالغ الإكرام، ويبكي ويضطرب حتى يغشى عليه.

ويقول: عبد ربه بن حماد" أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى سابق البربري عن عظني فكتب اليه بهذه الأبيات":

بسم الذي انزلت من عنده السور — الحمد لله اما بعد يا عمر
ان كنت تعلم ما تبقي وما تذر — فكن علي حذر قد ينفع الحذر
و اصبر علي المقدور و ارضي به — و ان ا تاك بما لا تشتهي القدر
فما صفي لا مرئ عيش يسر به — الا و اعقب يوم صفوه كدر
قد يرعوي المرء يوما بعد هفوته — وتحكم الجاهل الا ا يام والعبر
ان التقي خير زاد انت حامله — والبر ا فضل ماتاتي وما تذر
من يطلب الجور لا يظفر بحاجته — وطالب العدل قد يهدي له الظفر
و في الهدي عبر تشفي القلوب بها — كالغيث يحي به من موته الشجر
وليس ذو العلم بالتقوي كجاهلها — ولا البصير كاعمي ماله بصر
والذكر فيه حياة للقلوب كما — تحيا البلاد اذا ما جاءها المطر
ما يلبث المرء ان يبلي اذا اختلفت — يوم علي نفسه الروحات والبكر
والمرء يصعد ريعان الشباب به — وكل مصعدة يوما ستنحدر
وكل بيت سيبلي بعد جدته — ومن وراء الشباب الموت والكبر
والموت جسر لمن يمشي علي قدم — الي الامور التي تخشي و تنتظر
فهم يمرون ا فواجا و تجمعهم — دار يصير اليها البدو و الحضر
الي الفناء و ان طالت سلامتهم — مصير كل بني انثي و ان كبروا
اصبحتم جزرا للموت يا خذكم — كما البهائم في الدنيا لكم جزر
ا بعد ادم ترجون الخلود وهل — تبقي الفروع اذا ما الاصل ينعقر
ولا اري اثر للذكر في جسدي — والحبل في الحجر القاسي له اثر
لو كان يسهر ليلي ذكر اخرتي — كما يؤرقني للعاجل السفر
اذا لداويت قلبا قد اضر به — طول السقام وكسر العظم ينجبر
ثم الصلاة علي المعصوم سيدنا — ماهبت الريح واهتزت به الشجر [18]

وبلغ عن ميمون بن مهران أنه قال دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربري الشاعر وهو ينشد شعرا فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات.

فكم من صحيح بات للموت آمنا | أتته المنايا بغتة بعد ما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة | فرارا ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مقنعا | ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
وقرب من لحد فصار مقيله | وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع
فلا يترك الموت الغني لماله | ولا معدما في المال ذا حاجة يدع[19]

فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غشي عليه، وقمنا وتفرقنا عنه.

ويقول هشام بن زياد قال سمعت الحسن ونحن في جنازة يقول رحمه الله سابق البربري حيث أنشد

وللمَوتِ تَغذُو الوالِداتُ سِخَالَها | كما لِخَرَابِ الدُّور تُبنَى المَسَاكِنُ
عَجِبتُ مِنَ الدُّنيا وذَمِّي نَعِيمَها | وحُبِّي لَهَا في مُضمَرِ القَلبِ باطِنُ
وقَولِي أَعِذني ربِّ من كُلِّ فِتنَةٍ | وَأكلفُ منها بالَّذِي هُوَ فَاتِنُ[20]

ويقول ابن عساكر بسنده عن احمد بن محمد الأسدي قال أنشدنا الرياشي لسابق البر بري:

ألا ربما صار البغيضُ مصافيا | ومال عن العهد الصديق المتأقن
فلا تغترر ماعشت من متجمل | بظاهر ود قد تغطي البطائن[21]

وفي الختام نلقي نظرة سريعة على صفحة من شعر الزهد في عصر السابق البربري. فنرى أن بعد ظهور الإسلام كان لتيار الزهد نصيبا كبيرا في الأدب العربي. في العصر الإسلامي والأموي والعباسي.

وقوى هذا التيار في العصر الأموي والعباسي لمواجهة شعراء الخمر والمجون والخلاعة ولإقلاع عامة الناس من سحر الشعراء الخلعاء المجان من الزنادقة والملاحدةوغيرها.

وفي العصر الأموي أطال شعراء الفرق الإسلامية من العلوية والخوارج وغيرهم الكلام عن الزهد والإعراض عن الدنيا وعن زخرفها وزوال متاع الدنيا والحياة والموت والفناء ومصير الإنسان.

ومن الشعراء البارزين في هذا العصر "عبد الله بن عبد الأعلى، ومسكين الدارمي، وأبو الأسود الدؤلي، وسابق البربري، وخليل بن أحمد الفراهيدي.

وفي العصر العباسي قويت هذه النزعة وظهر جماعة وقفوا في مواجهة شعراء الخمر والمجون. وحاولوا بإنشاء سد قوي ضد إنتشار الفسق والمجون، وأقوى شعراء الزهد في العصر العباسي الأول محمود الوراق.

وقد ذكر الجاحظ صالح بن عبد القدوس مع سابق البربري فلا بد أن نكتب كلمات عديدة عنه

" كان صالح عبد القدوس من أصل فارسي من المجوس يعتنق الثنوية المانوية بل كان رأس المانويين ويجادل عن عقيدتهم ويدعو الناس إليها.

وكان شعره لايخرج عن دائرة عقيدته وشعره يدور على التنفير من الدنيا وفنائها الزائل وذكر الموت والفناء والحث على مكارم الأخلاق مجتنبا عن ذكر الجنة والنار والحشر والعقيدة الإسلاميةفي البعث بعد النشور.

وكان زنديقا فلا يعلن زندقته ولايواريها.

وذكره محمد بن إسحاق النديم فقال: "صالح بن عبد القدوس من روساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة وقال لهؤلاء: (ومنهم صالح) كتب مصنفة في نصرة الإثنين ومذاهب أهلها".[22]

ونجد في هذا العصر شعر أبي العتاهية في الزهد ويقال: إنه أخذ الشعر عن سابق البربري وتتلمذ له ولا نعرف عن صداقة هذا القول.

وكان أبو العتاهية في البداية يعيش حياة اللهو والمجون وينظم الشعر في الغزل والمدح، ثم تحول عن حياة اللهو والمجون إلى الزهد والتقشف ومع ذلك لم تخرج من طبيعته محبة المال واكتناز الذهب والفضة.

ولذلك يجري وراء المال ويقف على أبواب الأمراء والوزراء لجلب المنفعة وللحصول على الجوائز فليس من المناسب أن نقارن شخصيته[23] بسابق البربري الزاهد الناسك الذاهد.

ونستطيع أن نقارن شاعرنا سابق البربري بشخصية مثالية في عهده أو بعده بقليل وهو المحدث البارع والشاعر المتقن عبد الله بن المبارك وهو يجمع بين حفظ الحديث ورواية الحديث عن الإمام أبي حنيفة وغيرهم الأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة وكان ناسكا وزاهدا وراغبا عن الدنيا، ولكن لم يكن نسكه عبارة عن ترك الدنيا ومتاعها فقط بل كان يرفع علم الجهاد ويعده من افضل العبادة ولذلك كتب إلى الناسك المشهور فضيل بن عياض رسالة شعرية قال فيها:

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الكريهة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا عن مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في	أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب[24]

المراجع:-

[1] تاريخ مدينة دمشق، ج 20 (ص 3-17) علي بن حسن المعروف ابن عساكر،571، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع1421.

[2] لسان الميزان،ج3 (ص2) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، 852هـ، دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد الهند 1330هـ.

[3] الكامل في ضعفاء الرجال،ج3 (ص 1307) عبد الله بن عدي الجرجاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

[4] كتاب الجرح والتعديل،ج4 (ص307)، عبد الرحمن بن المنذر التميمي، 327هـ، دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد الهند 1372.

[5] تاريخ دمشق،ج20 (ص6).

[6] الكامل في ضعفاء الرجال،ج3 (ص 1307).

[7] لسان الميزان،ج3 (ص3)

[8] تاريخ الخلفاء، ص(246) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، 911هـ، نور محمد كارخانه تجارتي كتب كراتشي-باكستان.

[9] تاريخ مدينة دمشق، ج 20 (ص 3).

[10] تاريخ مدينة دمشق، ج 20 (ص7)، (لم نجد ترجمته في معجم الشعراء للمرزباني في النسخة مطبوعة.)

[11] الكامل في ضعفاء الرجال،ج3 (ص 1307).

[12] تاريخ مدينة دمشق، ج 20 (ص9-17).

[13] مجلة اللغة العربية، العدد 44، عبد الله كنون.

[14] من الشعر الديني، د.سعيد أعراب، جريدة الميثاق، العدد 94.

[15] الأعلام قاموس تراجم، ج3 (ص79) خير الدين الزركلي، دار العلم للملاين بيروت، 1986م.

[16] تاريخ مدينة دمشق، ج 20 (ص5).

[17] بغية الطلب في تاريخ حلب،ج9 (ص 4068)، كمال الدين ابن العديم عمر بن أحمد بن أبي جرادة، دار الفكر.

[18] البيان والبيين، ج1 (ص119) الجاحظ، دار صعب، بيروت.

[19] بغية الطلب في تاريخ حلب،ج9 (ص4075).

[20] البداية والنهاية، (فصل خلافة عمر بن عبد العزيز، الجزء التاسع) إسماعيل بن عمر بن كثير،

[21] شعب الإيمان،ج7 (ص403) للحافظ البيهقي

[22] تاريخ مدينة دمشق، ج 20 (ص 13).

[23] الفهرست(ص401)، محمد بن اسحاق النديم، نور محمد، كراتشي 1971م.

[24] العصر العباسي الأول، (ص403) د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر.